دلائل صدق الرسالات

أ.د/ يحيى محمد ربيع
أستاذ الدراسات الإسلامية كلية الآداب
جامعة البحرين



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله- ﷺ - وبعد:

فلقد دأب علماء الكلام على الاستدلال بالمعجزة على صدق الرسول ﷺ وعبارتهم المشهورة أن المعجزة تقوم مقام قوله " صدق عبدي فيما بلغ عني " وهذا كلام مسلم ، فالمعجزة دليل صدق النبي ، ولكن السؤال هل المعجزة هي الدليل الوحيد ؟ أم أن هناك دلائل أخرى يمكن أن يستدل بها على صدقهم في دعوى الرسالة.

القرآن الكريم يشير في بعض الأحيان إلى أخلاق الأنبياء ، وإلى تاريخهم قبل النبوة وبعدها ، بل إن بعض الأنبياء يجعل سيرتهم دليلاً على صدقه ، فأحدهم يقول لقومه:﴿ فقد لبثت فيكم عُمرًا من قبله أفلا تعقلون ﴾ (١) وآخر يقول : ﴿ ولا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ .

وعن سيدنا محمد ﷺ يقول تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(٢).

إذن من الممكن أن تكون حياة النبي وسيرته وأخلاقه دليلاً على نبوته ، كما أن النبي يحمل رسالة ويوحى إليه بشريعة تشتمل على عقيدة وأحكام ، وأخلاق ومضمون ومحتوى تلك الرسالة يمكن أن يكون دليلاً على دعواه ، هل ما أتى به يصلح الدنيا والدين أو لا ؟ وهذا

يذكرنا بما قاله أكثم بن صيفي عن دعوة النبي ﷺ : " لو لمْ يكم ما جاء به محمد ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً " .

إذن يمكن أن يستدل بمضمون الرسالة على صحتها وصدق صاحبها وبهذا تتعــدد دلائل صدق الرسالات ويمكن حصرها فيما يلي:

١- المعــجزة.
٢- حياته وسيرته وأخلاقه.
٣- مضمون رسالته ومدى ما تحقق لمن يدعوهم من مصالح حقيقية.

وسنشير إلى كل واحدة من تلك الأدلة في العناصر التالية.

• أولاً : المعجزة:

المعجزة في اللغة : اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير (٣) .

وفي لسان العرب : " والمعجزة بفتح الجيم وكسرها مفعلة من العجز وهو عدم القدرة . . . . . ومنه التعجيز ومعناه التثبيط وذلك إذا نسبته إلى العجز " (٤) .

وعلى هذا فالمعجزة مشتقة من العجز الذي هو نقيض القدرة ، والمعجز في الحقيقة فاعل العجز في غيره وهو الله تعالى ، كما أنه هو المقدر لأنه فاعل القدرة في غيره (٥) .

وفي القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ **والذين سعوا في آياتنا معاجزين** ﴾(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء** ﴾ (٧) . ويبدو أنها سميت كذلك " لأنها تعجز العقل عن تفسيرها ، كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها " (٨) .

فالمعجزات هي الأمور التي يعجز سائر البشر عن الإتيان بمثلها .

والمعجزة في الاصطلاح:

تعرف بأنه : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقًا له في دعواه مع عدم المعارضة .

وما دامت المعجزة تؤدي إلى عجز غير النبي عن معارضتها أو الإتيان بمثلها فالمفروض أن تكون ملزمة . ولذا يقول البغدادي : " لابد للنبي من معجزة تدل على صدقه فإذا ظهرت عليه معجزة واحدة تدل على صدقه ، وعجزوا عن معارضته بمثلها لزمتهم الحجة في وجوب تصديقه ووجوب طاعته " (٩) .

ومن التعريف السابق يمكن استنباط شروط المعجزة :

وأولها : أن تكون أمرًا خارقًا للعادة ، ولم تعرف بأنها فعل بل أمر لأن الأمر يتناول الفعل وعدم الفعل ، وكلاهما يمكن أن يكون معجزة ، فالفعل كنبع الماء من بين أصابعه ، وكقلب العصا حية ، وعدم الفعل كعدم إحراق النار ، والمقصود بخرق العادة ، أن يكون الأمر كذلك في الواقع ونفس الأمر ، وهذا يخرج أمورًا ليست بمعجزة في نفس الأمر كالسحـــــر وغرائب المخترعات ، فهما ليسا من الأمور الخارقة لأن كليهما ينال بالتعلم ويخضع لقواعد معينة إذا عرفها الشخص ووقف عليها برع فيها .

ثانيًــا : يظهره الله : وهذا شرط في المعجزة ووصف لازم لها أن تكون من فعل الله لأنها خرق للعادة ، وخرق العادة لا يقدر عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، فخالقها وحده الذي أبدع الكون وبناه على نواميس محددة هو القادر على خرق تلك النواميس .

ومن هذا القيد نعلم أن النبي عاجز عن صنع المعجزات من تلقاء نفسه ، حتى بعد أن يؤيده الله بها لا يستطيع فعلها في أي وقت لأن الله تعالى هو الذي يصنعها ، فموسى ﷺ مع أن الله أيده بالعصا إلا أنه ما كان يستعملها كآية إلا إذا أذن الله له وأمره بذلك ﴿ **وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا** ﴾(١٠)﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق** ﴾(١١) .

ثالثًـــا : على يد مدعي النبوة : فيشترط أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة وهذا الشرط يجعلنا نقف على الفروق بين الأمور الخارقة للعادة فهناك :

- **الإرهاص** : وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبي قبل النبوة .
- **الكرامة** : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح .
- **الإهانة** : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد من يدعي كذبًا النبوة أو الرسالة ، والإهانة فيها أن يأتي الأمر الخارق نقيض ما أراده ذلك العبد كأن يقول دليل صدقي أن يتحدث هذا الجدار ، فيتحدث فعلاً لكنه يقول هذا الرجل كاذب في دعواه ، فيكون كلام الجدار أمرًا خارقًا للعادة ، لكنه جاء مكذبًا لهذا الرجل ، فيصير ذلك دليل إهانة لا دليل كرامة .
- **الاستدراج** : وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد المشركين استدراجًا لهم .
- **والمعونة** : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد من عباده يقع في شدة تخليصًا له وهو المضطر .

إن الفارق بين هذه الخوارق يعرف بحسب الشخص الذي تظهر على يديه ، فإن كان هذا الشخص نبيًا كان الأمر الخارق معجزة ، فإن كان ذلك قبل نبوته كان إرهاصًا ، وإن كان رجلاً من أهل الصلاح كانت كرامةً وإن كان مدعيًا للنبوة كان إهانةً ، وإن كان مشركًا أو كافرًا كان استدراجًا ، وإن كان مضطرًا يريد الخلاص من شدة وقع فيها كان ذلك معونةً .

رابعــاً : أن تكون المعجزة مقرونة بدعوة النبوة ، وهذا معنى " على يد مدعي النبوة " وهذا يخرج الإرهاص ، فالإرهاص والمعجزة يظهران على يد شخص واحد لكن الزمن مختلف فإن ظهرت قبل نبوته سمي ذلك إرهاصًا .

وهذا الشرط يجعل خارق العادة ينظر إليه بحسب الزمن وليس بحسب الشخص .

خامســاً : موافق له في دعواه : إذن يشترط أن يكون خارق العادة موافقًــا لدعوى من تظهر على يديه ، فإن وافق كان معجزة ، وإن حدث ولكن جاء مناقضًا لدعواه فهي الإهانة التي تظهر على يد المدعين والكاذبين كما حدث لمسيلمة الكذاب ، فقد ورد أنه تــفــل في عين رجل لشفائها فعميت السليمة .

وإذا قال آياتي أن يحيى الله هذا الميت فأحياه الله ، لكنه قام وله لسان زلق فقال : صاحبكم متخرص كذاب ، وقد بعثني الله لأفضحه .

سادسًا : أن تتعذر معارضته : لأنه لو عورض بمثل ما جاء به لدلت المعارضة على أن ما جاء به ليس خارقًا للعادة ، بل هو من جملة العادات ، ولكن العادات العجيبة أو الغريبة التي تحتاج إلى تعلم وخبرة وإتقان كالسحر والشعوذة والكهانة .

وزاد البعض شروطًا أخرى منها مثلاً ما ذكره الإمام القرطبي من أنه يشترط فيها أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله كفلق البحر وانشقاق القمر وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر (١٢) .

وهذا شرط متضمن في الشرط الثاني وهو أن تكون بيد الله تعالى .

والبعض أضاف شرطًا آخر وهو أن تقع المعجزة في زمن التكليف فإذا رفع التكليف رفعت العادات لأنه زمن نقض العادات ، فقد تظهر الخوارق على يد الدجال وغيره ، وهذا أمر معلوم ، لأننا نتحدث عن معجزات الأنبياء التي تقع عند بعثهم وإرسالهم خاصة أن النبوة لها خاتم فقد انقطعت المعجزات بعد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ ، فصار أمرًا مشهورًا أن زمن إرسال الأنبياء قد انتهى .

- **ثانياً : الاستدلال بسيرة الأنبياء وأخلاقهم :**

الأساس في ذلك قوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (١٣) .

والآية تنص على ألا يكون الظلم مؤهلاً للرسالة والنبوة وأن الظالم لا يستحق أن يكون مؤهلاً للاختيار الإلهي ، وهذا أمر ضروري فلا يعقل أن يكلف بإقامة العدل مَنْ يفقده ، إذن العدل الذي هو مقابل الظلم هو طريق التأهيل ومن بين العدول الذين يحاربون الظلم يصطفي الله مَنْ شاء منهم ، ألم يأمر الله أحد رسله أن يقول لقومه :﴿ **إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ (١٤) ، إذن أخلاق الرسول يستدل بها على صدقه فيما يقول ، ولا شك أن الأنبياء عليهم السلام اتصفوا بأسمى معاني الأخلاق .

ويحدثنا تاريخهم أنهم كانوا أعلى أقرانهم كعبًا في أصالة النسب وكرم المحتد ، وحسن المنبت ، وطيب النشأة ، وأن ذلك يمتد منهم إلى أصولهم المباشرة والبعيدة ، وهذا بجانب طهارة الفطرة ونقائها(١٥) .

ولا يخفى على أي دارس لسيرة نبينا ﷺ ما كان يتصف به من أخلاق وشمائل فهو الذي لقب بالصادق الأمين ، وهو الذي ترك عليًّا في الفراش ليرد الأمانات إلى الذين دبروا لقتله ومكروا للقضاء عليه .

وزوجه خديجة (رضي الله عنها) استندت إلى أخلاقه في الحكم عليه فقالت : " والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلأ ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق " .

كما استدل هرقل بأخلاقه أيضًا على صدقه عندما أرسل النبي له خطابًا يدعوه فيه إلى الإسلام فدعـــا هرقل مَنْ كان عنده من العرب وكان من بينهم أبو سفيان الذي كان في تجارة هناك آنذاك فسأله أسئلة كثيرة كان منها : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ما جربنا عليه ، فسأله : هل يغـــدر ؟ فقال : لا يغـــدر ، وعقب هرقل على إجاباتهم كلها ومن ضمن تعقيباته على هذين السؤالين :

" سألتكم : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلتم : لا فقلت قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى . وسألتكم : هل يغـــدر ؟ فقلتم : لا ، وكذلك الرسل لا تغـــد" (١٦) .

ويكفي وصف القرآن لرسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة والعدالة والصدق والأمانة وغيرها ، ثم هذا الثناء الشامل لكل أخلاقه ﷺ ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (١٧) .

وابن خلدون يجعل أخلاقهم من علامات ودلائل نبوتهم فيقول : " ومن علاماتهم أيضًا : أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والذكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع " ويسميها ابن خلدون " علامات الأنبياء غير الخوارق

- **ثالثًا : الاستدلال بمضمون الرسالة التي يدعو إليها :**

لاشك أن مضمون أي دعوة مسوغ للحكم عليها بالصدق أو الكذب وبالصلاح أو الفساد ، والدعوات على مرّ الزمن تقاس بمبادئها وأسسها وما تحققه تلك المبادئ على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والأمة ، والسؤال : ماذا يريد صاحب أي دعوة من وراء دعوته ؟ هناك من يريدون الشهرة ، ومن يريدون السلطة ، ومن يريدون المال والابتزاز ، ومن يريدون التحرر والإباحية .

وهناك من يريدون الصلاح والعفاف والعدالة والمساواة ، والطهر والنقاء ، والأنبياء على رأس هؤلاء كلهم ، الفارق بينهم وبين غيرهم من القادة المصلحين ، أن هؤلاء المصلحين إصلاحهم يقوم على أساس عقلي اجتهادي محض حتى إذا افترضنا حسن النية وصدق العزيمة فما مقياس ما يدعون إليه ، إنها مقاييس بشرية سياسية أو اجتماعية أو فلسفية .

لكن الأنبياء يدعون إلى منهج هم أنفسهم لا يملكون أن يزيدوا عليه أو ينقصوا منه ، إنه منهج إلهي رباني ، وضعه الخالق لإصلاح خلقه ، وهو وحده الأعلم بما يكون به صلاحهم .

إذن يمكن تركيز هذه القضية في مبدأ " الإصلاح " الإصلاح في الاعتقاد ، في السلوك ، في الاجتماع ، على مستوى الفرد ، الجماعة ، الإنسانية ، ومن الثابت أن مراتب الإصلاح متفاوتة ، ولما كان على رأسها إصلاح العقيدة ، فقد بدأت بها جميع الرسالات الإلهية ، ثم تأتي بعد ذلك المراتب الأخرى للإصلاح (١٨) .

فما من نبي إلا وأتى بالعقيدة الصحيحة ، والأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات التي تحقق علاقة صحيحة مع الله ، وعادلة مع

الناس ، والأخلاق الجميلة التي يجب على الإنسان أن يتحلى بها في أي زمان وفي أي مكان ، ناهيك عن الرسالة الخاتمة وما تضمنته من أحكام ودعت إليه من أخلاق شاملة وصالحة لكل زمان ومكان ، وكفيلة بإقامة مجتمع سعيد ينطبق عليه وصف المدينة الفاضلة ، ولكن بالواقع لا بالخيال والمثال .

وقد أشرنا إلى أن المعيار الحقيقي للإصلاح هو الله سبحانه وتعالى إذن الميزان الصحيح الذي يمكن أن نحكم به على المضمون هو إقامة الأدلة والبراهين على أن هذا المضمون من لدن حكيم حميد ، فهو حينئذ يعلو على أي اجتهاد ، ودعوة النبي حينئذ تسبق أي دعوة مهما كان ما تدعو إليه تلك الدعوة .

إذن مضمون رسالات الأنبياء لا يخرج عن الحق " وقد حدثنا تاريخ الأنبياء أن العقبة الكئود التي وقفت أمام الحق الذي جاءوا به هو : الإلف والتقليد غير البصير ، والغفلة عن الحق ، بعد أن طمست معالم الفطرة الصحيحة " (١٩) .

ويقرر ابن خلدون أن صحة المضمون دليل على صدق الداعي ونبوته فيقول : " ومن علاماتهم أيضًا : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف " .

وأيضًا في قصة هرقل التي أشرنا إليها ورد في أسئلته لأبي سفيان ومن معه ما يدل على ذلك " فسألهم بماذا يأمركم ؟ فقالوا : يأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئًا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصدق والعفاف والصلة

ويعلق على إجابتهم تلك بقوله : " سألتكم عما يأمر به ؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، ويأمركم بالصلاة

والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبي" [٢٠] .

وهذا الكلام يعنى أن مضمون رسالات الأنبياء واحد ، فقد حكم هرقل على من يدعو بمثل ذلك بأنه نبي .

وهذا هو نفس حكم النجاشي عندما استمع إلى طرف من القرآن من سورة مريم قال : " إن هذا الذي جاء به محمد والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة " .

وهكذا تتعــدد أمامنا أوجه الأدلة على صدق الرسول في دعوى النبوة والرسالة ، فإذا ما رأينا نتيجة ما دعا إليه من العبادات وأثرها في تصفية القلوب ، وأحكام ما جاء به نبينا محمد ﷺ من تشريعات محكمة على غاية الدقة ، وما تؤدي إليه من سعادة الفرد والجماعة علمنا أنه ﷺ على أعلى درجات النبوة [٢١] .

- **وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:**

ما دمنا قد تحدثنا عن المعجزة ، وذكرنا أنها هي دليل صدق النبوة المعتمد عند علماء الكلام ، فلابد أن يتطرق حديثنا إلى القرآن الكريم وإعجازه ، فمع تعدد معجزات نبينا ﷺ وشمولها للإعجاز المادي والإعجاز المعنوي إلا أن القرآن الكريم يبقى هو المعجزة الكبرى ، والمعجزة الخالدة ، كما أنه يشتمل على المعجزات الحسية التي تتعلق بالأنبياء السابقين أو نبينا محمد ﷺ فهو معجزة في نفسه كما أنه الدستور الذي ينقل إلينا المعجزات الأخرى ، ولذا فالحديث عنه يغني عن الحديث عن غيره من المعجزات ، لكن الحديث عن جميع المعجزات لا تغني عن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، ولذا فقد ألف العلماء

في إعجازه كثيرًا من البحوث والكتب والتي تتحدث فقط عن وجوه الإعجاز فيه ، وسنحاول في إيجاز غير مخل أن نلمَّ بجوانب إعجازه .

وتعود أهمية الإعجاز القرآني أو القرآن كمعجزة إلى اختلافها عن معجزات الأنبياء السابقين ، وللشيخ محمد الغزالي كلام نفيس في هذه النقطة سأنقله برمته لأهميته :

" جرت سنة الله في أنبيائه جميعًا أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة ، وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ، ويستهوي الأفئدة ، ثم ما يبني معالم اليقين ، وعناصر الاستقرار ودواعي الطمأنينة في النفوس .

وكانت معجزات الأنبياء شيئًا آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها ، فطب عيسى غير إنجيله ، وعصا موسى غير توراته .

إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئًا لا ينفصل عن جوهرها ، فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابًا واحدًا ، وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها البرهان الأكبر لدعوى الرسالة ، والسناد الأعظم لصدق صاحبها

فآي القرآن الكريم ، بما تتضمن من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية وبما تغرس في الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة هي رسالة الإسلام ومعجزاته ، وأعظم ما في هذه الآيات أن الفطرة الإنسانية تجد فيها مجالها الحيوي الفذ ، وتجد في جوها المتنفس الطلق الحر ، ومن ثم كان القرآن كتابًا إنسانيًا ، وكان نبي القرآن إنسانًا كاملاً ، وكانت رسالة الإسلام في موضوعها وأهدافها رسالة إنسانية بحتة ولذلك توجه القرآن مباشرة إلى العقل البشري يخاطبه ، ويفك عنه آصاره ، ويرد له اعتباره . .

ثم يقول : فلتكن إذًا معجزة نبي الإسلام عقلية ، وما دام البشر يحترمون عقولهم ، فستبقى لهذه المعجزة قيمتها " (٢٢)

والسؤال الآن : ما الحكمة من أن تكون المعجزة الأخيرة للبشرية على هذا النحو ، بينما المعجزات السابقة كانت حسية مرئية ؟

كان العلماء يعللون ذلك بأن العقل البشري بلغ عند بعثة نبينا ذروته ولم تعد تكفيه طبيعة المعجزات السابقة والتي كانت تستهوي البشرية قبل ذلك ، فكان لابد من معجزة عقلية معنوية ، وكأن القرون الأولى بالنسبة للأمة الخاتمة كالأطفال بالنسبة للرجال .

وهذا التعليل في نظري لا يستقيم، وذلك لأسباب:

- **أولها** : أن الإنسان هو الإنسان منذ أن خلقه الله تعالى ، أو ليس من القرون الأولى الأنبياء والرسل الذين لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، وأنا يقيني أن الخلق ليس فيه تطور قد تتطور العقول لأسباب خارجة عن الخلق كالمؤثرات البيئية مثلاً ، ولهذا يقرر القرآن أنه خلق آدم خلقًا متكاملاً ، ولذا أسْجدَ له ملائكته ، كما يقرر سبحانه أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم .
- **ثانيهما** : أن القرآن يخبرنا عن حضارات الأولين التي قامت واندثرت والتي تدل على بناء عقلي وحضاري متين .
- **ثالثهما** : أن القرآن كلام الله ، وقد أنزل الله كلامه على الأنبياء السابقين في صورة كتب أو ألواح أو صحف كزبور داود ، وتوراة موسى وإنجيل عيسى ، وصحف إبراهيم ، ولا شك أن كلام الله معجز في أي زمن الفارق الوحيد أن هذه الكتب كانت لأمة مخصوصة ولزمن محدد ، أما القرآن فهو للعالمين ، وهذا الفارق يزيد في أوجه الإعجاز ، لكن يظل الإعجاز سمة الجميع ،

نعم هذه الكتب قد اندثرت بعد تحريفها ، وهذا هو الذي يجعل الحديث عن إعجاز القرآن أمرًا خاصًا .

كما كان العلماء يعـــللون انفراد نبينا ﷺ بتلك المعجزة العقلية المعنوية بأن الله سبحانه وتعالى أعطى كل نبي معجزته من جنس ما برع فيه قومه ، فلبراعة قوم موسى عليه السلام في السحر والشعــوذة كانت معجزته قلب العصا حية ، ولبراعة قوم عيسى في الطب كانت معجزاته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ولبراعة العرب في الفصاحة والبلاغة كانت معجزة نبينا القرآن الذي بلغ في الفصاحة والبلاغة مبلغـــاً عجز أفصح الأمم وأبلغها عن معارضته .

ومع وجاهة هذا التعليل ، إلا أن في النفس منه شيء ، فكما أسلفنا لم يخل الأنبياء السابقون من وحي السماء وكلام الله المعجز ، كما أن نبينا ﷺ لم تخل معجزاته من مثل معجزاتهم الحسية والتي كان له وقع على العرب لا يقل عن وقع المعجزات السابقة على أقوام الأنبياء .

وأيضًا يمكن أن يعترض على هذا التعليل بأن محمدًا ﷺ لم يُرسل إلى العرب فقط ، فلِم حصروا الإعجاز في فصاحة العربية وبلاغتها ، ولو كان الأمر كذلك فماذا يمثل هذا الإعجاز بالنسبة لغير العرب ممّن لا يعرفون العربية ولا يدركون أسرارها ، بل ماذا يمثل هذا الإعجاز لأمة كبيرة كالجن مثلاً مع أن الله سبحانه وتعالى أعلمنا أنهم عندما استمعوا إلى القرآن أنصتوا وخشعوا وتأثروا .

هذا يجعلنا نقرر هنا أن الفصاحة والبلاغة تمثل أحد جوانب الإعجاز ، أما الإعجاز الحقيقي في القرآن فيعود إلى كونه كلام الله تعالى ولذا فتأثيره النفسي والوجداني والمعنوي لا يخص أصحاب العربية وحدهم .

للأسباب التي أسلفناها أرى أن القرآن الكريم يعـود إعجازه إلى كونه وحيًا إلهيًا ، وكلامـًا ربانيًا ، يسيطر على النفوس سيطرة كاملة ، لأنه كلام مَنْ خلق .

كما أن الله تعالى أراد أن تكون المعجزة الأخيرة على هذا النحو لسبب آخر بعيد جدًا عما سلف ذكره وهو أنه الوحي النهائي الذي يحمل كلمة الله الأخيرة إلى البشرية ، ولذا وجب أن يكون شاملاً ، وكاملاً ، وشافيًا ، وتبيانًا لكل شيء ، فقد أنزل لهدف وغاية تختلف تماما عن الكتب السابقة ، نعم هدف الكل هو الهداية ، إلا أن هداية قوم معينين في زمن معين يختلف عن هداية العالمين على مدى قرون لا يعلم مداها إلا الله تعالى ، فلابد وأن تكون له من الخصائص والسمات ، ويحمل في طياته من العلوم والمعارف ، والأحكام والتشريعات ما يكفي هذه البشرية إلى قيام الساعة ، وهذا هو الإعجاز الحقيقي .

كما أنه لابد أيضًا أن يكون في هذه الصورة العقلية المعرفية التي تظل تتلى وتفسر على مدار الزمن ، فشأن معجزة بهذه السمات الخلود والبقاء ، بخلاف المعجزات الحسية التي تندثر بعد حدوثها ، ولا يستمر أثرها ، ولا تحمل في طياتها سوى علامة صدق على ادعاء صاحبها ، أما القرآن الكريم فمع أنه برهان ساطع لصدق نبينا إلا أنه يحمل في طياته عقيدة وشريعة وأخلاق ما ينبغي أن تكون عليه البشرية إلى يوم الدين فهو برهان على النبوة ، ودستور لهذه الأمة ، وهذا هو الإعجاز المبين .

ولم لم يكن هذا المضمون وحيًا إلهيًا لما كان معجزاً بهذا الشكل وهذا ما أشار إليه حديث النبي ﷺ الذي رواه البخاري : " ما من

الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة " .

ولأن الوحي هو أساس الإعجاز على اعتبار أنه ليس كلام البشر ، وليس في مقدورهم مجتمعين أن يأتوا بمثله ، فإن القرآن ليس معجزة واحدة بل كل ثلاث آيات تعتبر معجزة على اعتبار أن الله تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله وأقصر سورة ثلاث آيات .

يقول الفخر الرازي : " إن الله تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال : ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾ وأقصر السور سورة الكوثر وهي ثلاث آيات ، وكأن الله تحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن ، ولما كان القرآن ستة آلاف آية وكذا آية لزم ألا يكون معجز القرآن معجزا واحدًا بل يكون ألفي معجزة وأزيد " (٢٣) .

بقي أن نسرد أوجه الإعجاز القرآني وهي كثيرة :

أولا : فصاحة القرآن وبلاغته :

يقول الفخر الرازي : " القرآن لا يخلو إما أن يقال إنه كان بالغًا في الفصاحة إلى حد الإعجاز أو لم يكن كذلك ، فإن كان الأول ثبت أنه معجز ، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة مع توفر دواعيم على الإتيان بها أمر خارق للعادة ، فكان ذلك معجزًا، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب " (٢٤) .

فالقرآن إذًا بلغ الغاية في الفصاحة ، وسمو الرتبة في البلاغة ، وذلك لاشتماله على النظم العجيب والأسلوب البديع .

إن من تتبع القرآن الكريم من العالِمين بالبلاغة وفنونها ، يجد في القرآن الكريم صورتها المثلى ونموذجها الأكمل ، من إفادة المعنى الكثير باللفظ القليل ، وهذا ما عبر عنه بجوامع الكلم ، وقد سجد العربي المشرك حينما استمع إلى قوله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ (٢٥) لبلاغة هذا التعبير من حيث هو يعبر عن البيان التام الذي لا خفاء فيه ، وكذلك ما جاء في القرآن الكريم من أنواع التأكيد والتشبيه والتمثيل الذي هو ضرب الأمثال ، وحسن المطالع والمقاطع ، والاستعارات والتقديم والتأخير والوصل حسب المقام ، وخلو القرآن من الركيك والشاذ ، وإذا كانت هذه هي سمة القرآن فإن أحدًا من البلغاء والواصلين إلى ذروة البلاغة ، وقمة الفصاحة ، لا يقدر على مثل ما في القرآن جملة مهما استفرغ وسعه ، وشحذ ملكاته وطاقاته ، وقصاراه أن يحصل على نوع واحد أو نوعين من فنون البلاغة ، أما القرآن فقد حوى كل هذه الفنون " (٢٦) .

وهذا هو الذي جعل جعل قريش تصفه مرة بالسحر ، وأخرى بالكهانة وثالثة بالجنون ورابعة بأساطير الأولين . . . . . إلخ .

وأكبر دليل إعجازه فصاحةً وبلاغةً تحدي القرآن لهم وعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة ، وقد كانت الفصاحة والبلاغة بضاعتهم .

يقول تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا** ﴾ (٢٧) .

ويقول تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ (٢٨) .

ويقول تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ (٢٩) .

فالقرآن الكريم معجز ؛ لأنه في أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة ، وهي توخي معاني الألفاظ وأسرار التركيب ، وترتيب الكلام حسبما تقتضيه المقاصد والأغراض ، وهذه هي المزية التي امتاز بها عن سائر الكلام (٣٠) .

يقول ابن كثير : " وكذلك بعث محمد ﷺ في زمن الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدًا ، وما ذلك إلا لأن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق " (٣١) .

ثانيها : مضمونه :

ونعني بذلك ما اشتمل عليه القرآن من عقيدة وشريعة وأحكام وأخلاق ، فقد بين الله تعالى أن القرآن تبيان لكل شيء ، ولهذا فهو الحق المبين ، والصراط المستقيم ، والنور العظيم ، وكما ورد عن نبينا :" فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم " .

يقول العلامة سيد قطب :" فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كتاب مفتوح – لو هدوا إلى اتخاذه إمامهم – ويلبي حاجتهم كاملة ، ويقودهم إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل ، وسيجد فيه من بعدنا كثيرًا مما لم نجده نحن ، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ، ويبقى رصيده لا ينفـــد بل يتجدد " (٣٢) .

ولا يمكن أن يوصف القرآن بذلك إلا إذا كان موضوعه معجزًا ، إنه ليس ملبيًا لمطالب البشرية وقت نزوله فحسب بل يظل يتجدد ويلبي حاجتها إلى يوم الساعة .

إنه لم يعرف كتاب من الكتب مثل ما لهذا القرآن من سمو الموضوع وسحر البيان ، وقوة التأثير مما وجه عناية العلماء إلى الاهتمام بدراسته من حيث ألفاظه ، ومعانيه ، وعقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، وتشريعاته ، فخلفوا بهذه الدراسة ثروة ضخمة من العلم والأدب لا تزال ولن تزال المادة الصالحة لقيام حضارة إنسانية ينعم فيها البشر بحياة أفضل وعيش أرغـد [٣٣] .

ولأن المضمون هو الذي كون تلك المعاني ، ولأن مضمون أي شيء هو بيت القصيد ، ولأن تحصيله لا يكون إلا بالفهم العميق أمرنا الله دائمًا أن نتدبر آياته : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ [٣٤] .

ولا شك أن كتابًا من لدن حكيم خبير لابد وأن يكون معجزًا في مضمونه ، وصدق الله تعالى : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [٣٥] ، ولأنه كذلك صار مصدقًا للكتب السابقة ، ومهيمنًا عليها .

ولذا يقول صاحب المقاصد : " ومن وجوه إعجاز القرآن اشتماله على وثائق العلوم الإلهية وأحوال المبدأ والمعاد ، ومكارم الأخلاق والإرشاد إلى فنون الحكمة العلمية والعملية والمصالح الدينية والدنيوية " [٣٦].

ثالثها : خلوه من التناقض والاختلاف :

وهذا وجه هام ، والذي أشار إلى هذا الوجه هو القرآن ذاته حيث يقول تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ (٣٧) ، وكأنه إشارة إلى ما أصاب الكتب السماوية السابقة من الاختلاف والتناقض بعد تحريفها وتبديلها ، وقد استدل كثير من العلماء على بطلانها بهذا الوجه وألفت كتب كثيرة في هذا الجانب (٣٨) .

وهذا ما يعبر عنه بالاتساق الذاتي فلا تتعارض جزئية واحدة منه مع جزئية أخرى ولا تصطدم مع الفطرة الإنسانية ، وكتاب يخلو من التعارض لابد وأن يكون متشابهًا ، ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا** ﴾ (٣٩) إذن هو مستقيم غير ذي عوج ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا ، قيمًا** ﴾ (٤٠) .

وما زعمه المستشرقون من وجود تناقض في القرآن الكريم زعم باطل ومردود ، وقد رفع العلماء ما يوهم هذا التناقض ، والتناقض الحقيقي لا يقبل الرفع ، والأمثلة التي ضربها المستشرقون عائدة إلى جهلهم بلغة العرب أو راجع إلى تحريفهم للنصوص ، وتعمدهم للمغالطات .

والعجيب أن المستشرقين يطعنون في القرآن بمطاعن لم تخطر على بال مشركي مكة أنفسهم ، ولو كانت تلك المطاعن حقيقية أو على الأقل علمية لما غفل عنها أرباب الفصاحة والبلاغة ، الذين تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، فالتناقض الذي يدعونه ما هو إلا وهم في رءوسهم ، وليس في القرآن شيء منه والآية الكريمة التي صدرنا بها الحديث عن هذه

النقطة تعتبر قانوناً وأساسًا في الحكم على سماوية الكتب أو عدم سماويتها .

رابعا : النبوءات:

والأصل في هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ **تلك من أنباء الغــيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك** ﴾ (٤١) .

قوله تعالى : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ (٤٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾ (٤٣) .

وهذا ما أشار إليه العلماء بالإخبار بالغيبات ، وقسموا الغيب إلى الغيب الماضي ، والحاضر ، والمستقبل .

فالماضي مثل ما حكاه القرآن عن الأمم السابقة والقرون الماضية ويستغرق كما هائلاً من آيات القرآن الكريم وهو المعروف بقصص السابقين خاصة قصص الأنبياء والمرسلين ، ويشير إلى ذلك الآيات التي صدرنا بها الحديث .

ومثال المستقبل كثير في القرآن ، يقول الباقلاني : " ومن وجوه الإعجاز : أن اشتمال القرآن على ما لا نحطه من علم غيوب متعلقة بالمستقبل ظاهر جلي مثل قوله تعالى :" والعاقبة للمتقين" وقوله تعالى : ﴿ **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين** ﴾ (٤٤)وقوله تعالى : ﴿ **كتب الله لأغــلبن أنا ورسلي** ﴾ إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم(٤٥) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ (٤٦) .

وفي قصة الخضر عليه السلام وسيدنا موسى عليه السلام وفي الحوادث الثلاثة التي عاينها موسى عليه السلام دليل على أنواع الغيب الثلاثة .

فخرق السفينة وتعليل ذلك بأنها لمساكين يعملون فى البحر ووراءهم ملك يغتصب السفن دليل على خرق الغيب الحاضر .

وقتل الغلام وتعليل ذلك بأنه لو بلغ لكفر وكفر أبويه دليل على خرق الغيب المستقبل .

أما الجدار الذى بناه وعلل ذلك بأنه مِلك يتيمين وتحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا ، فكل ذلك خرق للغيب الماضى .

وكل ذلك على يد نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يعرف عنه أنه تعلم أو حاول ذلك ، ولذا كان من الباطل البين أن يقول بعضهم " إنما يعلمه بشر "

وصدق الله تعالى ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾ (٤٧) .

وإذا كان العلماء فسروا إعلام القرآن بالأمور المغيبة بهذه الطريقة وهى جيدة لا شك فإنني أرى أن مجال الإخبار بالمغيبات أوسع من ذلك بكثير ، أليس إخبار القرآن عن الله تعالى وأسمائه ، وصفاته من قبيل الإخبار بالغيب ، وأليس إخباره إيانا عن عالم الملائكة وصفاتهم وإقسامهم وخلقهم ، ووظائفهم ، وأحوالهم من قبيل الإخبار بالغيب ، وكذلك عالم الجن ، وكذلك إخباره عن الدار الآخرة وما فيها من حساب والصراط والميزان ووصف الجنة والنار ، أليس هذا إخباراً بالغيب ، إن أركان الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، كلها أمور غيبية ، أطلعنا الله عليها عن طريق وحيه إلى رسله ، وأليس الحديث عن خلق آدم عليه السلام وأطوار ذلك الخلق

بعد ذلك فى الإنسان من قبيل الغيب . وبهذا نفهم معنى الإيمان بالغيب وثناء الله تعالى على المؤمنين به .

﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (٤٨) .

هذه هى أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم ولا شك أنها أكثر مما ذكرنا ، ففى القرآن الكريم جانباً إعجازياً يصعب التعبير عنه وهو تأثيره فى نفوس سامعيه هذا التأثير الذى بسببه أسلم كثير من مشركى مكة كعمر رضي الله عنه ، وبسببه وصفه الوليد بن المغيرة " بأنه ليس بكلام الجن والإنس ، وليس بالشعر ولا الكهانة ولا السحر ، وأن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه " .

هذا التأثير الذى يدل على اهتزاز المشاعر وتحرك الوجدان عند النجاشى فقال " إنه والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

هذا التشابه بين إنجيل عيسى وقرآن محمد أساسه أن المصدر واحد وهو الله تعالى ، وتلك هى النقطة التى أشرنا إليها من أن معجزة القرآن الكبرى تعود لكونه كلام الله ووحيه وليس فى مقدور البشر أن يأتوا بمثله وهذه وحدها هى التى تميزه عن سائر الكلام ، وبهذه الخصوصية كان تأثيره الرهيب على كل من يسمعه حتى ولو لم يكن من البشر ، فهو الذى عندما سمعه الجن ما لبثوا أن قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾

تبقى نقطة واحدة أشار إليها بعض العلماء على أنها وجه من وجوه الإعجاز وأسموها " الصرفة " ومعناها أن إعجاز القرآن عائد إلى قدرة

الله تعالى التى صرفت العرب على أن يعارضوه ويؤلفوا مثله ، ولولا هذه الصرفة لعارضوه وكان فى إمكانهم أن يأتوا بمثله .

وهذه القضية أتفه من أن نخصص لها مبحثاً أو نجعلها مشكلة للعرض والرد ، فما ذكرناه من أوجه الإعجاز كاف فى دحضها ، وخاصة أنه يلزم منها ألا يكون القرآن معجزاً فى ذاته .

إن إعجاز القرآن لا يعود إلى صرف الله همة العرب عن معارضته وسلبه إياهم القدرة عليها، إنما هو عائد إلى فصاحته وبلاغته، ونظمه وبنائه ، ومضمونه ومعانيه ، وعقائده وأحكامه وتشريعاته الصالحة لكل زمان ومكان . وعائد قبل ذلك وبعده إلى كلام الله ، وهنا تسقط المقارنة ، فلا تماثل بين كلام الخالق وكلام المخلوق .

(١) يونس الآية (١٦)

(٢) القلم الآية (٤)

(٣) بصائر ذوي التمييز (١ / ٦٥) . .

(٤) ابن منظور (٤ / ٢٨١٦) دار المعارف .

(٥) البغدادي : أصول الدين (ص ١٧٠) .

(٦) سورة سبأ الآية (٥) .

(٧) سورة العنكبوت الآية (٢٢) .

(٨) الشيخ سيد سابق : العقائد الإسلامية (ص ١٨١) .

(٩) الفرق بين الفرق (ص ٢٠٧) .

(١٠) سورة طه الآية (٦٩) .

(١١) سورة الشعراء الآية (٦٣) .

(١٢) راجع تفسير القرطبي (١ / ١٧ ــ ١٨) فقد ذكر شروط المعجزة .

(١٣) سورة البقرة الآية (١٢٤) .

(١٤) سورة الشعراء الآية (١٠٧ ــ ١٠٨) .

(١٥) د / محمد نصار : العقيدة الإسلامية الجزء الرابع النبوات (ص ٢٠٨) .

(١٦) راجع القصة في العقيدة الطحاوية (ص ١٦٢ ــ ١٦٤) .

(١٧) سورة القلم الآية (٤) .

(١٨) د / محمد نصار : العقيدة الإسلامية الجزء الرابع النبوات (ص ٢١٤) .

(١٩) نفسه (ص ٢١٤) .

(٢٠) العقيدة الطحاوية (ص ١٦٤) ،

(٢١) د / محمود بركات : قضايا النبوات (ص ٦٣) .

(٢٢) عقيدة المسلم (ص ٢١٠ ــ ٢١١) .

(٢٣) التفسير الكبير للرازي (٣ / ٥١٧) .

(٢٤) مفاتيح الغــيب (٢ / ١٢٧) .

(٢٥) سورة النحل الآية (٩٤) .

(٢٦) د / محمود بركات : قضايا النبوات (ص ٨٤) .

(٢٧) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

(٢٨) سورة هود الآية (١٣) .

(٢٩) سورة البقرة الآية (٢٣) .

(٣٠) الشيخ محمد السبكي : الدين الخالص (ص ٤٢) .

(٣١) تفسير ابن كثير (١ / ٣٦٥) .

(٣٢) في ظلال القرآن (١٩ / ٢٥٨٤) .

(٣٣) الشيخ سيد سابق : العقائد الإسلامية (ص ١٩١) .

(٣٤) سورة محمد الآية (٢٤) .

(٣٥) سورة فصلت الآية (٤١) .

(٣٦) المقاصد (٢ / ٣٥) .

(٣٧) سورة النساء الآية (٨٢) .

(٣٨) راجع ما كتبه الشيخ رحمت الله الهندي في كتابه القيم إظهار الحق ، وابن تيمية في الجواب الصحيح ، وكتابنا الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف .

(٣٩) سورة الزمر الآية (٢٣) .

(٤٠) سورة الكهف الآية (١) .

(٤١) سورة هود الآية (٤٩) .

(٤٢) سورة آل عمران الآية (٤٤) .

(٤٣) سورة القصص الآية (٤٦) .

(٤٤) سورة الفتح الآية (٢٧) .

(٤٥) راجع الإنصاف للباقلاني .

(٤٦) سورة الروم الآية (٢) .

(٤٧) سورة العنكبوت الآية (٤٨) .

(٤٨) سورة البقرة الآية (٢ – ٣) .